الحادث والتاريخ

الاستاذ مالك بن نبى
مدير التعليم العالى بالجزائر

لقد كان التاريخ الى حد القرن العشرين شبه متحف حيث كان ياتى المؤرخ للتزود بالمعلومات عن شعب ما وذلك فى زاوية معينة مخصصة لهذا الشعب وسياسته وفنه وأدبه وفلكلوره ... ذلكم هو التصور التقليدى للتاريخ .

بيد انه كان من الممكن بالنسبة للمؤرخ أن يلاحظ فى بعض الاوقات السمة المشتركة وصلة الرحم بين بعض زوايا المتحف .. فهو اذ ذاك امام «وحدة» تاريخية معينة .

ولقد يسمى ج أ توينبى هذه الوحدة بحقل الدراسة أو «مجال البحث» (I) . ومجال البحث هذا عبارة عن المساحة التى يتم فيها النسيج التاريخى بفعل حوادث تجد تفسيراتها وغاياتها وأسبابها ومسبباتها فى هذا المجال او الحقل .

وهكذا يوسع توينبى التصور التقليدى توسيعا ملحوظا يعمقه وذلك بتطعيمه بمفهوم « مجال البحث » الذى يطيح بالاطار الوطنى حيث كان ينحصر تصور المؤرخ اليونانى (توسيديد) .

الا أن الاطار الجديد الذى يقترحه المؤرخ الانجليزى الكبير كان قد تداعى هو الآخر خلال القرون تحت وطأة دفع الحوادث لتاريخية أقوى وأكثر تشابكا من أن نلتمس لها تفسيرا فيما يسميه المؤرخ الكبير بمجال البحث .

فسقوط الدولة الرومانية مثلا ظاهرة ينسبها المؤرخون الى موجة المهاجرين العارمة التى تدافعت على شعوب الشرق الاوربى فدفعت بهم الى غزو الغرب اللاتينى . ويفسر فعلا الحادث فى شكله هذا فى نطاق « مجال البحث الاوربى» بيدا أننا اذا ذهبنا بالتحرى مذهبا أبعد بأن نطرح هذا السؤال .. ترى كيف نشأت هذه الموجة التى يسميها المؤرخون الالمان « الفولكارفاندرونغ » Volkervanderung اى موجة الشعوب هى الاخرى ؟ وفى الحال يحطم سؤالنا هذا نطاق ما يسميه المؤرخ الانجليزى بحقل الدراسة لان الظاهرة التى كانت لحد الآن شيئا اوربيا تصبح فجاة «حدثا» أسيويا . وبالفعل فان تداعى أسرة مالكة صينية قبل ذلك بقرون هو الذى دفع قبيلتين منغوليتين على المسارعة للنهب والسلب بحيث اصطدمتا ، فكان لاصطدامهما أثره البعيد فى دفع شعوب الشرق الاوربى فى التيار المسمى « موجة الشعوب » أو « الفولكارفاندرونغ » .

فهنا حدث معبر عن تصور تاريخى عالمى على مستوى ذلك الزمان .

وهناك حدث آخر وقع بعد ألف عام من ذلك لايقل كشفا عن التصور التاريخى العالمى فى العصور الوسطى .. ذلكم هو تدخل «تيمورلنك» الذى يغير مجرى التاريخ لان حفيد جنكير خان قد ظهر بالضبط فى الوقت الذى كان يستعد الامير العثمانى «بايازيد» وملك القبيلة الموغولية المسماة بالقبيلة الذهبية Horde d'or «توقطاميش» ـ احدهما فى الغرب والثانى فى الشرق على غزو أوربا تلك القارة التى كانت تنفض عنها غبار القرون الوسطى ، واخذت تدخل طريق النهضة Renaissance وهكذا ينقذ عمل تيمور

---

1) Champ d'étude

لينك جميع آمال هذه النهضة التى تشكل من غير منازع المقدمة التاريخية لعصر الذرة الذى نعيش فيه .

هل « تيمور لينك » جد عصرنا ؟ فهـذا تصور لم نعهده فى التاريخ وبزيادة على ذلك فهو تصور لا شك أنه كان يغيب عن وعى الامير التتارى نفسه .

ما هى قيمة معركة «مارينيان» على سبيل المثـال اذا قيست باحداث على هذا المستوى من التاثير العالمى ؟

وعلى هذا يبدو لنا أن التاريخ نسيج معقد مما هو عارض وما هو مقدر .

واننى أتذكر وأنا اكتب هذه الجملة انتقادا وجه الى فى صحيفة باريسية غداة نشر كتاب «وجه العالم الاسلامى» باننى أحمل السببية فى التاريخ أكثر مما تتحمل . ولو أجبت على هذا الانتقاد لقلت بكل بساطة اننى لست أحمل التاريخ بل هـو الـذى يحملنى . ولست أرى داعيا لازاحة البصر عن تصور يفرض نفسه علينا . والواقع أن هذا يستدعى اقامة نظرية كـاملة للحادث التاريخى .

ان الحادث عند انقذافه يكون محملا بكل ماتستطيع الطبيعة البشرية أن تودعه فيه من غرض مصلحى وهوى وطموح وبغض ووهم الخ ...

انه صاروخ منطلق فى الزمان مدفوع بكـل مـا يحرك الانسان . ولا ريب ان أثره ذو بال ولو اقتصرنا على النظر اليه من هذا الجانب البشرى .. فقد يكـون غزوا يغير الخريطة السياسية او ثورة تغير حياة أمـة أو ميلاد دولة او سقوط أخرى أو ظهور فن صناعى أو اختفاء فن آخـر .

وكل هذا يحقق ما يكون قد سبق تصميمه وتدبيره عند منشئه وقد لا يحققه ولكن دائما فى اطار « مجال بحث معـين » .

لقد كانت الحرب العالمية الاولى حـادثا تسببته ارادة التوسع الالمانية ـ اذا وضعنا حادث سراڤيجو Sarajevo البسيط جانبا ـ تلكم كانت شحنتـه التاريخية عند انطلاقـه .

وقد كانت الحرب العالمية الثانية حادثا مماثـلا أطلقته «ارادة القـوة» الهيتلرية . ولكـن الصاروخ يذهب الى أبعد . انه يخرج بعد انقذافه عن المسار الذى قدره العقـل البشرى له . فكأنى بـه تتغير شحنته تدريجيا فى الطريـق فلم يعد يندفـع فى الزمان او التاريخ تبعا لسببية ولكن بمقتضى غاية . وفى نهاية مستقره وغاية مطافه يصيب الحادث الوجدان البشرى. ولا يحدد وقعه فى مجال حقل دراسة معين اى فى حياة أمة او مجتمع ولكن فى مجال شامل للانسانية .

ان الحـرب العـالميـة الاولى لا تطيـح بآل « الهوهانزولارن » Hohenzollern والهابسبورغ Habsbourg فقط ولكنهـا تنشىء فكـرة جديدة تجسدت فى شكل «عصبة الامم» .

ان وقع الحادث لم يهدم بعض البناءات السياسية فقط ولكنه ولد مفهوما دوليا للمسؤولية الا ان بعض التركيبات الذهنية الخاصة بالقرن التاسع عشر قـد تخلفت كما نرى ذلك عندما تتوزع عصبة الامم المنبثقة من وعى الانسانية رغيف المستعمرات مرة أخرى .

ان الحرب العالمية الثانية لم تكتسح المطامـح الهتليرية والنظريات العنصرية فحسب ولكنها أخرجت الى الوجود هيئة الامم المتحدة . وربما سيقول حفدتنا ان القنبلة الذرية لم تهـدم «هيروشيما» و «نجازاكى» فقط ولكنها وترت وارهفت الشعور بالمسؤولية الدولية فعجلت بتكوين وعى عالمى .

ومن الغرور أن يقال ان هذا الامر كـان يشغـل العالم الفزيائى أو بانهـا يمر Oppenheimer عندما كان فى فيافى النيفادا يضع آخر لمسة على القنبلة التى ستهدم هيروشيما .

ان وقع حادث ما اطلقت عنانه الارادة البشريـة يخرج فى النهاية عن رقابتها . انه صاروخ مقذوف فى الزمان يتجاوز دائما تقديراتنا وحساباتنا الامر الذى أشار اليه عز وجل فى قوله .. «ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . والواقـع أن المؤرخين الـذين يصنفون التاريخ يعوزهم شىء من الحرية . او بعبارة أخرى فالتاريخ الذى تهدف اليه ارادتنا يكون دوما دون التاريخ الذى تحققه الاقدار ، فسبب المنطق الكارتزيائى الذى يقتصر حكمه على الحوادث على النظر اليها مـن زاوية الاسباب أيغيب على نظرهم جزء أساسى من مدار الاحـداث .

وبما ان الصاروخ لا يندفع ـ فى هـذا الجزء ـ بفعل قوى تحصر فى مبدأ السببية ولكنه يخضع فيما يبدو لمبدأ غائى . فان المؤرخـين يهملون بهـذا جانبا عظيما من فلسفة التاريخ .

مع أن الحادث يحقق معناه الكامل ومؤداه الشامل

عندما يبلغ مرماه وغايته في التاريخ . الا ان اكتشاف هذا الجانب الثانى من معنى الحادث يتطلب من المؤرخ مزيدا من الحرية على ما يمنحه المنطق الكارتيزيائى .

وان «ايمانويل مونيى» أحد هـؤلاء « المتحزرين » استطاع بصره أن يرى – على حد تعبيره – شمولا فى الظاهرة التاريخية بحيث يأتى كل حدث فيها ليقـوم بدوره لخير المجموع ونجاته .

وهذا التصور لا يحيط رغم تعمقه الا ببعض جوانب الموضوع . فعلينا أن نغوص فى قلبه وان نميـز فى الظاهرة التاريخية جانبين .. الجانب العرضى البشرى والجانب القدرى كما يراه «مونيى» .

ولا أظن أن هذا التصور التاريخى يمكن الاستغناء عنه فى لحظة بلغت فيها مأساة الانسانية أشد توترها ، حيث نرى بروقا مهددة فوق أعـالى جبـال الكاشمير ومستنقعات الفيتنام .

مالك بن نبى

الفيلسوف الفرنسى سارتـر

يعرف بعض المثقفين المغاربة بواجبهم نحو التعريب

ان الواجب الاول للمثقف هو أن يحول دون سراب المستعمر السابق الثقافى ، فليس المهم هو مصدر الثقافة واصلها ، ولكن المهم هو ما سيفعل المرء بهذه الثقافة ، فواجب المثقفين المغاربة الذين ارتووا من منهل ثقافـة المستعمرين هو أن يجعلوا من هذه الثقافة سلاحا ضد المستعمرين .

ولكن محاربة الامية بالنسبة للمثقف الذى تقل معرفته فى كثير من الاحيان باللغة العربية ، تقتضى أيضا تعريب المثقفين المغاربة .

ومن واجب المثقف المغربى فى نفس الوقت القيام بتحويل وئيد للغة العربية حتى تستجيب هذه اللغة لحاجيات العالم المعاصر وحتى يمكـن استعمالها فى مختلف الميادين بما فى ذلك الميدان التقنى . اذ لا ينبغى أن تنشأ لغة موازية للتعبير عن المصطلحات التقنية التى تروج فـى عالمنا المعاصر . وليست هذه القضية خاصة باللغة العربية فقد وجد الصينيون أنفسهم مثلا أمام صعوبات مماثلة ولكن يبدو انهم تغلبوا جزئيا عليها .

« سارتـر »